الدرس الخامس

البحث التاريخي بين الموهبة والتدريب

إن تعبير البحث هو أشهر التعابير السائدة في المجتمع الأكاديمي، وهو على ما تكرر، رياضة فكرية في موضوع معين، أساسها التحري والانغماس في الحقائق لأجل التعرف على طبيعتها وتفسيرها.

أما البحث التاريخي (La Recherche Historique) ما هو إلا بمثابة ممارسة فكرية في مسألة تاريخية تستهدف عن طريق استعمال أصول وقواعد منهج البحث التاريخي تحويل تلك المسألة من قضية غامضة غير معروفة إلى بحث تاريخي شيق. وهذا التعريف يشترط منهجيا توفر ثلاث عناصر في عملية البحث هذه: باحث متدرب على عملية الكتابة تدريبا علميا؛ عدد معين من النصوص التاريخية تأخذ شكل المصادر؛ وطريقة كتابية يتم بموجبها تطوير وكتابة الموضوع المخصص، محددة بطرائق البحث التاريخي المتوفرة. وهذا يعني أن على الباحث أن يتذكر دائما أن البحث التاريخي اكبر من مجرد إعادة كتابة ما قد كتب بدقة في صفحات الآخرين. وإنما عليه أن يكون لديه سؤال ذو طبيعة تاريخية، ويكون راغبا في أن يجيب عليه. وهو في ذلك – أي التاريخ- شأنه شأن العلوم الأخرى، هو ان يدرك المؤرخ أن هنالك شيئا يتطلب الإيضاح، وتلك خطوة هامة في تقدم العلم إلا أنها كثيرا ما يدركها الإغفال والإهمال.

إن المسألة الأساسية في دراسة التاريخ هي تحليل التغير عبر الزمن، غير أن بعض العلوم الاجتماعية بوجه عام، تمكنت من التغاضي عن مشكلة الزمن واعتبارها مسألة ثانوية. فعلماء الاقتصاد مثلا ظلوا طويلا يكتفون بتخصيص الجزء الأكبر من براعتهم وطاقتهم لتهذيب ما يعرف لديهم بالنماذج الثابتة، ولم يعترفوا بأن تحليل عوامل التغير والنمو مسألة في الدرجة الأولى من الأهمية إلا في دور متأخر، على أنه مهما يكن لهذا التصرف من مسوغات، ومهما يكن مناسبا في الدراسات الأخرى، فليس باستطاعة المؤرخين أن يعملوا به، ذلك أن معطيات المؤرخين هي الحوادث المرتبطة ارتباطا زمنيا بغض النظر عما قد يكون هناك من طرق أخرى

لترابطها، وهذا هو السبب في أن كل حادثة تاريخية مهما تكن مشابهة لغيرها، فهي فريدة في بابها من بعض الوجوه، وعلى هذا فلا يمكن لعنصر الزمن أن يكون لدى المؤرخ حدا رابعا متطفلا أو جامحا لا يضبط، فلا يدخله المؤرخ في حسابه إلا مترددا ولا يأخذ به إلا في المراحل الأخيرة من التحليل، بل لابد له أن يدخله في التحليل منذ البداية.

والغاية من وراء البحث كله هي المعرفة أو فهم العلائق. ومثل هذا الفهم يقتضي في البحث التاريخي شيئا أكثر بكثير من مجرد ترتيب الحوادث على النحو الذي وقعت فيه زمنيا. وتدوين الحوادث على ذلك النحو يمدنا بالأخبار لكنه لا يحمل معه فهما لعلاقاتها. فإذا أردنا فهمها، فينبغي علينا أن نكتشف وجوه ارتباطها بعضها ببعض علاوة على ارتباطها من حيث التتابع والاتفاق الزمنيين.

وهذا يدعونا للقول أن البحث التاريخي مثل بقية البحوث في العلوم الأخرى، يخضع لما يساق من معطيات، وهي بطبيعة الحال معطيات تاريخية وسلوك ميثودلوجي (**Méthodologie**) للمؤرخ وأخرى فطرية، وفي مقدمتها: الموهبة، وهذه الموهبة لا يمتلكها الجميع. فالبحث خلقٌ وإبداع، وتلك قدرة خاصة تبرز أو تتألق لدى بعض الأفراد، وتتضاءل أو تنعدم عند آخرين. وهذه الموهبة عندما تتوفر يمكن تنميتها بالمعرفة والمثابرة، فكثرة الاطلاع على الأعمال الجيدة، وعمق التفكير فيها وفي خطواتها الفكرية ثم الاستمرار على محاولات البحث والدراسة، والتعرف على أخطاء المحاولة كما يبرزها الأساتذة والمشرفون والنقاد، والاتجاه لتحاشي هذه الأخطاء في الأعمال الجديدة، وكل ذلك ينمي موهبة البحث ويبرز شخصية الباحث.

ولكن عندما تكون موهبة البحث ضئيلة أو معدومة يكون من الصعب، وربما من الخطأ السير في طريق البحث، فإن الباحث في هذه الحالة لن يستطيع أن يخلق عملا ذا بال، وكثيرا ما نصادف طلابا يحبون القراءة، ويميلون للجد والاجتهاد، ولكن قدراتهم في عالم البحث ضعيفة أو محدودة، فتكون أعمالهم جسدا بلا روح، لأن البحوث تقوم على مقدار الجدوى العلمية والاجتماعية وبقدر ظهور شخصية الباحث المتمثلة في أصالة أفكاره، المبنية على أساس تفهم المادة العلمية، ومنهجيته في عرضها، ومناقشتها بأسلوب علمي، هادئ، متجرد، والتزام الجوانب الفنية

المطلوبة للبحث. وبناءا عليه، فإن القدرة على انجاز بحث علمي مميز هي موهبة خاصة. وموهبة البحث عندما تتوفر عند أحد ما يمكن تنميتها بالمعرفة والمثابرة، فكثرة الاطلاع على الأعمال الجيدة، وعمق التفكير فيها وفي خطواتها الفكرية، ثم الاستمرار في محاولات البحث، والتعرف على أخطاء المحاولة من قبل الأساتذة والمشرفين والنقاد، والاتجاه لتحاشي هذه الأخطاء في الأعمال الجديدة. ومن خلال هذه الممارسات يمكننا القول أن إمكانية تنمية الموهبة وتطويرها تكون في أعلى احتمالاتها، وهو ما يبرز شخصية الباحث ويجعله قادرا على تقديم أعمالاً أكثر فائدة وأهمية في ميدان الدراسات التاريخية.

ومن الطبيعي أن تكون هناك مظاهر ومعالم تدل عليها وتكشف عن وجودها، ومن أهم تلك المعالم التي تبرز موهبة البحث: القدرة على اختيار موضوع للدراسة لم تتضح بعد معالمه، والقدرة على ابتكار خطة مناسبة للبحث، فهذه القدرة دليل على سيطرة الباحث على الموضوع وعلى جوانب الفكر فيه، وكذلك يمكننا اعتبار استقلال شخصية الباحث، وعدم استعداده للانجذاب نحو أهواءه أو الآراء المضللة، وعدم التسليم المطلق بكل ما كتب ويكتب، وغيرها من الأمور الايجابية التي تجعل الباحث مستعدا للوقوف في وجه العوامل السلبية التي تعيق قدرات الباحث وتفقده شروط الموهبة الحقيقية.

ويتطلب البحث التاريخي باحثا أكاديمياً ذا تفكير علمي وقدرات ذهنية مميزة حتى يتمكن من معالجة المعطيات التي تتوفر لديه في إطار بحث علمي متميز. وعليه فان البحث العلمي، والتاريخي احد فروعه، ليس بمهنة سهلة، بل مهنة صعبة أصبح لها متخصصوها، بعكس ما كان عليه الحال في الماضي، حيث كان البحث مجرد نشاط فردي لأفراد متحمسين موهوبين، فالبحث عمل ذو طبيعة خاصة، يتطلب من الباحث أخلاقيات معينة، مثل: تفكير سليم، متفرغ بالكامل لعمله، صبورا، دؤوباً ومجتهداً.

والحقيقة أن البحث التاريخي يقتضي أيضا وجود انسجام بين عنوان البحث ومحتوياته بان يعكس المحتوى للنص بأجمعه مفردات العنوان المخصص له. في الوقت ذاته، يمر كل بحث ما بين فترة الاستقرار على الموضوع والانتهاء من انجازه

بمرحلتين أساسيتين تشملان مرحلة جمع وتحليل المادة الأولية وتصنيفها على شكل مجاميع كرونولوجية متجانسة من أجل تفسيرها وتوظيفها، ومرحلة تطوير وكتابة متن البحث، والتي تستند إلى النقد والتحليل التاريخيين، بما في ذلك تقرير ومتابعة مجموعة من المشاكل والخطوات المرتبطة بكل واحد منها. والبحث الجيد هنا، يمكن أن نعرفه من خلال العنوان الذي يجمع بين الجدية والدقة وقوة ترابط الفصول ومحتوياتها، إلى جانب تجانس وتناسق الفقرات، فضلا عن الهوامش وما تقدمه من دلالات واضحة عن المصادر المستخدمة. وكل هذه المميزات وغيرها، يمكنها أن تقدم لنا الدلائل على أن الباحث يتمتع بالشخصية العلمية والمقدرة على السيطرة على مكونات بحثه. وهذا يتطلب أن يكون هناك مؤرخ يحمل مواصفات تقنية واستعداد ذهني يؤهله لكتابة بحث ذا مستوى علمي راق. وعليه من يحاول الكتابة في التاريخ لا يعد مؤرخا بل لابد أن تتوافر في من يكتب فيه الصفات والاستعدادات والظروف التي تجعله قادرا على ذلك العمل.

ومع تطور وسائل البحث التاريخي، إلى حد أنها أصبحت بلا حدود، وتنوع اهتمامات المؤرخ في الوقت الحالي، تخطت الدراسات التاريخية الحديثة المفهوم التقليدي للتاريخ، فلم يعد التاريخ اليوم ما كان عليه بالأمس، أي لم يعد ذلك العلم الذي يهتم بالماضي فقط، بل أصبح علما يهتم بالإنسان وأحواله المتبدلة باستمرار على مر العصور. وهذا التنوع ساهم في تضاعف عدد المؤرخين المحترفين في جميع أنحاء العالم حتى تحدث بعضهم عن دولية البحث التاريخي بواسطة توزيع كبار مجلات التاريخ عبر أنحاء العالم.

والأبحاث في ميدان الدراسات التاريخية، مثل بقية ميادين البحث الأخرى، كثيرة ومتنوعة، وهي تتدرج من حيث الأهمية، ومن حيث الأهداف. وهذا التنوع يعتمد عل مستوى تنفيذ البحث أكثر مما يعتمد على الهدف الأساس من هذه الأبحاث أو حتى تحديد إشكاليته. ومستوى التنفيذ مرتبط بعوامل مختلفة. وتستوعب الجامعات والمعاهد والمؤسسات الأكاديمية المختلفة أنواع مختلفة من البحوث، ويمكن تصنيف هذه البحوث بالشكل الآتي:

1. **<u>بحوث الدراسة الجامعية الأولية</u>:**

وتشمل نوعين من البحوث التي تختلف طبيعتها وقيمتها حسب الغاية من وراء إجراءها، والمؤسف حقا أن إنجاز مثل هذا النوع من البحوث المهمة في الكثير من الجامعات العربية يكون شكليا ولا يعنى به العناية الكافية، مما جعله يفقد الغاية الأساسية من وجوده في البرامج الجامعية عموما، على العكس مما يحدث في الجامعات الأوربية حيث يعامل معاملة أكاديمية محضة. والملاحظ أنه ليس من الضروري مثل هذه البحوث أن يدون الطالب آراءه الخاصة أو انطباعاته الشخصية حول الفكرة الأساسية.

وهي تشمل نوعين من البحوث، الأول <u>بحوث صفية (أعمال موجهة)</u> وهو من متطلبات الأعمال التطبيقية في المقاييس المقررة ضمن العام الدراسي أثناء الدراسة الجامعية، ويختار له أستاذ المقياس عنوان البحث، ويرشده إلى المصادر والمراجع التي تساعده على إتمامه، ولا يجاوز في أقصى الظروف إلـ 25 صفحة. والغرض من هذه البحوث تنمية مواهب الطالب، ومحاولة تنظيم أفكاره وتدريبه على عرضها واضحة دقيقة، ومساعدته على تقديمها إلى البيئة التي يعيش فيها بلغة سليمة مقبولة. وهذا النوع من البحوث يكون تدريبا للطلبة على تطبيق قواعد البحث التي سبق للطالب أن تعلمها، ليكون قادرا على إعداد البحوث الأكثر جدية في المستقبل. فالأبحاث واحدة من أكثر الوسائل فعالية في تنمية القدرة على التفكير المستقل عند الطالب إذا توفر له التوجيه المناسب.

والنوع الثاني <u>بحوث التخرج (المذكرات)</u>: هذا النوع من البحوث يقدم كأحد متطلبات التخرج على مستوى الدراسات الأولية (ليسانس/ ماستر) في نظام (ل.م.د) وهي بحوث تنطبق عليها الشروط التقنية والمنهجية المطلوبة في البحوث الأكاديمية في ميدان الدراسات التاريخية، ويعمل الطالب مع أستاذه المشرف على تحديد إشكالية الموضوع الذي يختاره الطالب، والغرض منه هو تدريبه على اختيار موضوع البحث. ومن خلال هذا النوع من البحوث يمكننا استبيان قدرات الطلبة وهم في المرحلة النهائية من تكوينهم الجامعي على استيعاب قواعد البحث التاريخي وتوظيفها للمراحل القادمة من البحث والعمل العلمي الحقيقي. لأن الطلبة خلال هذه المرحلة

يتدرب الطالب على منهجية البحث، جمع الأصول، القدرة على اختيار المادة العلمية المطلوبة والمناسبة ثم تنظيمها والتوفيق بينها وصياغتها في أسلوبه الخاص.

2. بحوث ما بعد التدرج:

وهي أعمال أكاديمية تصل إلى الحالة التي هي عليها بمعاونة مشرف أكاديمي متخصص، ويرتبط انجازه بالدرجة التي تؤهل المرشح. وهي على أنواع مختلفة، نذكر منها: مذكرة الماجستير (وفق نظام التكوين القديم) هو دراسة مبتكرة في موضوع من الموضوعات، ويجب أن تتوفر في هذه الأبحاث صفات قد لا تكون مطلوبة بشكل رسمي وإلزامي في النوعين السابقين، ومن هذه الصفات الجدية والأصالة، وهذا النوع من البحوث يحتاج إلى فترة زمنية أطول وتفرغ تام حتى يتمكن الباحث من انجازها على أكمل وجه. والغرض منها أن يحصل الطالب على تجارب أوسع في البحث والتحقيق تحت إشراف احد الأساتذة المتخصصين، لتكون هذه التجارب مساعدا له عند التحضير للدكتوراه. وتعتبر رسالة الماجستير في النهاية امتحانا يعطي فكرة عن مواهب الطالب ومدى صلاحيته للتحضير لما بعدها.

وهناك بحث يقدم على مستوى الدكتوراه، ولا يختلف كثيرا من حيث الشكل عن رسالة الماجستير، وتقع على الباحث في الدكتوراه مسؤولية اختيار الموضوع، وتحديد إشكاليته، وتحديد أدواته واختيار مناهجه، لذلك فهو بحث مبتكر عن موضوع لم يبحث فيه، لأن بحث الدكتوراه عمل يثري المعارف الإنسانية ويخدم البشرية بما تقدمه من نظريات جديدة وأفكار مبتكرة تطور المعرفة وتدفع بها قدما إلى الأمام. ويعتمد بحث الدكتوراه على مصادر ومراجع أوسع، وبراعة في التحليل والتنظيم أعمق لتكون عنوانا لصاحبها وتدل على مدى استقلاليته في البحث ومقدرته على الإنتاج العلمي دون إسراف أو تقيد.

ولابد من الإشارة هنا إلى أن هذه البحوث يمكن أن تكون موضوعا جيدا لبحث يشارك به صاحبه (الباحث) في ملتقى علمي يحضره للتنويه عما حققه من أضافه في موضوع دراسته. وتكون مثل هذه الأعمال الجامعية ذات طبيعة أكاديمية خاصة من ناحية مادتها ضمن الموضوع الواحد، وإذا ما تحولت إلى كتاب فتحتاج إلى

تحوير في محتوياتها، لأن أي منهما كتب في محتواه وأسلوبه للمتخصصين فقط، بينما قارئ الكتاب يضم المتخصص وغيره، ولابد حينئذ من تحويرها لتتلاءم مع تطلعات القارئ وخلفيته الثقافية.

3. <u>بحوث التدريسيين</u>:

وهي البحوث التي يتقدم بها أساتذة الجامعات لغرض تقييمهم وترقياتهم إلى درجات علمية أعلى، وكذلك بحوث أخرى لغرض اشتراكهم في الملتقيات الوطنية والدولية ونشرها في دوريات علمية رصينة.

خلاصة القول، أن الهدف من البحث التاريخي هو صنع معرفة علمية من الماضي الإنساني، ونعني بالعلمية أنها تستند إلى طرائق عقلانية توصل الحقيقة بقدر ما تسمح به الظروف التي تخضع لها وهي ظروف تقنية.